جامعة قفصة
المعهد العالي للدراسات التّطبيقيّة في الإنسانيّات بقفصة

دراسات في الإنسانيّات

مجلّة علميّة محكّمة

العدد الثّامن

تونس 2022

دراسات في الإنسانيّات — العدد الثّامن — Studies in Humanities — تونس 2022

Université de Gafsa
Institut Supérieur des Etudes Appliquées
en Humanités de Gafsa

Studies in Humanities

Peer-reviewed academic journal

Numéro 8

ISSN 1737- 0310

دراسات في الإنسانيّات

مجلّة علميّة محكّمة

جامعة قفصة

المعهد العالي للدراسات التّطبيقيّة في الإنسانيّات بقفصة

دراسات في الإنسانيّات

مجلّة علميّة محكّمة

(سنويّة)

رئيس التّحرير: د. محمّد الصّالح البوعمراني

المدير المسؤول: د. حسن زريبة

هيئة التّحرير:

د. وليد حامد
د.توفيق القاهري
د. فاتن مبارك
د.المعزّ الزّموري
د.حسّان الرّابحي

اللّجنة العلميّة

أ.د. على صالح مولى
أ.د. عبد الفتاح براهم
أ.د. صالح بن رمضان
أ.د. محمد بوهلال
أ.د. علي أسعد وطفة
أ.د. رضا بن حميد
أ.د.رشيد السّهلي
أ.د.راوية يحياوي
أ.د. منجيّة عرفة منسيّة
أ.د عادل الأسطا
د.محمّد خطّاب
د.بلقاسم بلعرج
د.صابر الحباشة
أ.د. نور الدّين بنخود
د.فتحي الخليفي
د. عمر بن دحمان
د.زينب حاجّي
د.سمير السّحيمي
د.منية عبيدي
د.محمّد النّوّي
د. محمّد إدريس

ISSN 1737-0310

العدد الثّامن جوان 2022

تعبّر المقالات المنشورة عن آراء أصحابها دون أن تلزم المجلّة في شيء

المحتويات

ترجمة معاني حروف التنبيه في القرآن الكريم إلى الفرنسية: سورة البقرة نموذجا 7

أد. خليفة بن الهادي الميساوي
/ أد. عامر بن المختار الحلواني

التّليد والوليد إكراهات المقام أم الحنين إلى القديم 35

أ. محمّد المزطوري

الخيّاميات خمرة العنقود أم خمرة الوجود؟ 59

أ.معزّ الزمّوري

الأدب والأنتروبولوجيا مقاربة أدبيّة-أنتروبولوجيّة لكتاب «منطقتان استوائيتان حزينتان» لـ«كلود ليفي-ستروس» 83

أ. زهيّة طراحة

صُورَةُ المُؤلّف في السّيرة الغَيريّة 109

أ. عبد الباقي جريدي

لعبة مُخالفة الواقع في رواية «كوسطا» 141

أ. بلقاسم مارس

الدّولة والمجتمع المدنيّ في العالم العربي صراع أم تكامل؟ 167

أ. نجيب جراد

جذوة الاقتباس في التّصوّف المبكّر: نموذج شقران القيروانيّ 193

أ. عمّار عامري

قراءة في مخطوطة: أجوبة للشّيخ الأجهوري وغيره عن سؤال وقع بشأن الفرق الإباضيّة. (الجزء الثّاني) 213

أ. زهير تغلات

الدّولة والمجتمع المدنيّ في العالم العربي
صراع أم تكامل؟

أ. نجيب جراد
المعهد العالي للدراسات التطبيقية
في الإنسانيات بقفصة
جامعة قفصة

الملخّص:

يتناول المقال إشكاليّة التّرابط بين الدّولة والمجتمع المدنيّ في العالم العربيّ، ويطرح ما تحتفظ به الذّاكرة العربيّة من صور للدّولة ممزوجة بالعظمة والافتخار، ويجلّي انقسام مواقف المثقّفين والسّياسيين العرب من الدّولة الوطنيّة. إضافة إلى أنّه يدرس الأسباب الّتي دفعت الدّول العربيّة إلى استنبات مجتمع مدنيّ توكل إليه مهمّة تمثيل المجتمع الغائب. ومن النّتائج الّتي وصلنا إليها أنّ النّخب الحاكمة في الدّول العربيّة تسعى إلى تحسين صورتها وسيرتها لدى الجمهور كي تدفع عنها التّهم الثّقيلة الّتي حاصرتها منذ الميلاد: التّجزئة والكفر والعمالة للأجنبيّ، وأنّ المجتمع المدنيّ يزداد نفورا كلّما أخفقت الدّولة في مجالات الدّيمقراطيّة والتّنمية وأنّ الاندماج يعسر أكثر كلّما شحّ الوعي المواطنيّ بالدّولة.

The State and Civil Society in the Arab World

Conflict or complementarity?

Abstract :

The article deals with the problem of interdependence between the state and civil society in the Arab world. It presents the sealed images in the Arab memory of the state, mixed with grandeur and pride, and illustrates the segmented attitudes of Arab intellectuals and politicians towards the nation state. In addition, itstudies the reasons that prompted the Arab countries to cultivate a civil society entrusted with the task of representing the absent society. One of the results we have reached is that the ruling elites in the Arab countries seek to polish their image and conduct among the public in order to debunk the heavy charges that have besieged them since birth: fragmentation, blasphemy, and employment for foreigners. And that civil society becomes increasingly alienated whenever the state fails in the areas of democracy and development, and that integration becomes more difficult as the citizenry awareness of the state becomes scarce.

تمهيد

تراءت لنا، من خلال مقالنا هذا، إشكاليات متمايزة حول مفهومي الدّولة والمجتمع نعتقد أنّها لم تبح بعد بكامل أسرارها ولم تُحطب ما بينهما من علاقات وارتباطات متشابكة. وإنّه من المفيد أن نذكّر بهذه المفاهيم علّنا ندرك الجوانب السّاكنة والمتحرّكة من تطوّر المجتمع العربيّ الإسلامي،ومن الأجدى أن نجنح إلى تنبنّي قراءة اجتماعيّة سياسيّة لواقع عربيّ مأزوم ومضطرب علّنا نجلّي حدود التّرابط والاندماج بين المجتمع المدنيّ والدّولة. فالأمر ها هنا، لا يتعلّق بصفة أساسيّة، بدراسة الأحداث في تنوّعها وتعدّدها، ولا بتوصيف مكتمل أو منقوص لعلاقات العالم العربيّ بالعالم الّذي يحويه أو يحيط به، وإنّما يتعلّق بتقديم رؤية أو وجهة نظر لا تروم سوى التّنبيه إلى أنّ الخطاب حول الدّولة الحديثة مازال خطابا يحدوه كثير من الجدل. فاللّقاء بين الدّولة والمجتمع المدني في المخيال العربيّ مازال لقاء موسوما بالتّشنّج والتّوتّر حينا وبالحذر والمهادنة أحيانا أخرى. ولعلّما شهده العالم العربيّ من تحوّلات سياسيّة كبرى خلال العشريّة الثّانية من الألفيّة الثّالثة كشف عن حقيقة مرّة خيّبت آمال الحالمين بدولة ديمقراطيّة منيعة ومتمكّنة وأعاقت دعوات المبشّرين بمجتمع مدنيّ يقظ ومتفاعل وأثارت حيرة كبيرة وأسئلة جمّة في أوساط المثقّفين. فالدّولة وإن احتكرت القوّة لردع المجتمع وإخضاعه فإنّنا نراها في الرّاهن العربي عاجزة عن تفعيل القوانين وإنفاذها خوفا من عنف المجتمع، والمجتمع المدني وإن تغنّى باستقلاليّته عن السّلطة فإنّنا نراه في بعض التّجارب العربيّة متغلغلا في المؤسّسات الحكوميّة ومكافحا من أجل إسناد تلك السّلطة السّياسيّة في أزماتها.

أغرتنا الإشكاليّة بالبحث في درجة تأثير التّصوّرات الخاطئة المجمّعة حول مفهومي الدّولة والمجتمع المدنيّ في طبيعة العلاقة بينهما والنّظر في أسباب هشاشة المجتمعات العربيّة ووهنها مقارنة بالمجتمعات المتقدّمة.ولعلّ تأويل تلك التّصوّرات وتحليل أبعادها يمكّننا من الظّفر بتفسيرات مقنعة حول حدود الصّراع والتّكامل بين الواجهتين ويجعلنا نطرح أسئلة من نوع:

كيف تبدو صورة الدّولة والمجتمع المدنيّ في المخيال الشّعبيّ العربي؟ وإلى أيّ مدى يؤثّر هذا التّصوّر في راهن العلاقة بينهما؟ وهل إنّ ضعف المجتمع المدنيّ من ضعف الدّولة وهشاشتها؟ وما هي حدود التّكامل بين الدّولة والمجتمع المدنيّ؟

1) الدّولة والمجتمع المدني

أ – مفهوم الدّولة

يكتنف مصطلح الدّولة غموض كبير رغم شيوع الاستعمال وكثرة التّعريفات. فيعني «مجموعة منظّمة ذات حكومة مستقلّة، وتضطلع بدور شخص معنويّ، اعتباريّ، مميّز تجاه المجتمعات المماثلة الأخرى الّتي يقيم معها علاقات. ولعلّ من الخطأ ربط الوظائف الأساسيّة للدّولة، في التّنظيم الرّاهن للمجتمعات، بالسّلطة التّنفيذيّة ربطا وثيقا لأنّه ثمّة مجال للتّمييز بين الدّولة والحكومة»[66]. فالدّولة هي أساس الاندماج والتّوحيد المنطقيّ والتّتام المعنويّ أو القيميّ في العالم الاجتماعيّ عند بيار بورديو[67]، وإذا ما سرنا في هذا التّعريف إلى أقصاه جاز لنا القول إنّها مبدأ الرّضى بما هو قبول بالنّظام الاجتماعيّ والتحاق به، ومشايعة للمبادئ الأساس لهذا النّظام الاجتماعيّ[68]. وهي شكل من أشكال التّنظيم الاجتماعيّ، تكفل الأمن لنفسها والرّعاية لبنيها ضدّ الأخطار الخارجيّة والدّاخليّة وتحقيقا لهذا الغرض فإنّها تملك القوّة المسلّحة والكثير من وسائل الإكراه والقمع. ولا تقوم دولة دون تماسك اجتماعيّ على درجة عالية وتنظيم متدرّج يسمح لها بنشر سلطانها وتنفيذ قراراتها[69]. إذ ينشئها الوعي وتقتضيها

(66) - أندريه، لالاند. موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب أحمد خليل، ط2، بيروت – باريس: منشورات عويدات، المجلّد الأوّل، 2001، ص:369.

(67) - بيار بورديو، عن الدّولة دروس في الكوليج فرانس 192-1989، ترجمة نصير مروة، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، أيلول/سبتمبر 2016، ص: 19.

(68) - المرجع نفسه، ص 19 - 20.

(69) - جاك دونييه دى فابر. الدّولة، ترجمة أحمد حسيب عبّاس، ص ص: 2 - 3. على الرّابط التّالي: https://docs.google.com/viewerng/viewer?hl=ar&t=50&url=https://www.alarabimag.com/books/21008.pdf

حاجة النّاس إلى تدبير معاشهم وتصريف شؤون حياتهم وفق مواضعات بينهم. وهي في المحصّلة نتيجة عقد (contrat) يخضع بمقتضاه النّاس طواعية إلى سلطة مادّيّة ورمزيّة تحتكر سنّ القوانين وإجراءها في المجتمع وتنفرد باستخدام مؤسّسات تشرّع وتنفّذ وتعاقب[70]. ووفق هذا المعتقد تظلّ الدّولة مؤسّسة تهدف إلى خدمة المصلحة العامّة المشتركة، وتظلّ الحكومة تهدف إلى مصلحة الشّعب وخيره. وبهذا تكون الدّولة حيّزا محايدا[71].

ب – مفهوم المجتمع المدني

جرت العادة على الدّوام النّظر إلى المجتمع المدنيّ على أنّه مفهوم هيجليّ شاع في كتاب «مبادئ فلسفة الحقّ» والحال أنّ هيجل نفسه استمدّ هذا المفهوم من تراث أكثر قدما يعود إلى القانون السّياسيّ لأرسطو (باللاّتينيّة Societascivilis) وأنّ هذا المفهوم قد استخدم بكثافة في الفلسفة السّياسيّة للقرنين السّابع عشر والثّامن عشر. إذ تحدّث عنه جون لوك في فصله السّابع من مقالته «في المجتمع السّياسيّ أو في المجتمع المدنيّ»، واعتبره مونتيسيكيو في عقده الاجتماعي مكوّنا مستقلاّ عن الدّولة وموجودا نوعا ما «خارجا» عنها وبإمكانه أن يقاوم تحكّمها[72]. أمّا جذور المجتمع المدنيّ بما هو حالة استقلال أو توازن مع الدّولة، فموجودة بكثافة في العمق التّاريخيّ للوعي العربيّ، هذا العمق الّذي يمثّله الدّين والثّقافة التّراثيّة ووعي التّاريخ بما هو حالة متجدّدة ونقديّة للماضي[73]. غير أنّ ما بقي من تراث «المجتمع الأهليّ»[74] اخترقته علاقات إنتاج جديدة وأنماط استهلاك

(70) - علي الصّالح، مولى. الدّولة الوطنيّة والشّرعيّة بحث في عوائق الاستخلاف وآفاق الاختراق، ط1، صفاقس: مطبعة التّسفير الفنّي، 2007، ص: 134.

(71) - نفسه، ص:20.

(72) - مارك، أبيليس. أنتروبولوجا العولمة (ترجمة عبد الحميد بورايو)، ط1، دمشق: دار نينوى للنّشر والتّوزيع، 2017، ص:223.

(73) - وجيه، كوثراني . المجتمع المدنيّ والدّولة في التّاريخ العربي، ضمن كتاب المجتمع المدني العربي ودوره في تحقيق الدّيمقراطيّة، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2001، ص:129.

(74) - المجتمع الأهليّ مصطلح استعمله وجيه كوثراني لتوصيف مظاهر العلاقة بين المجتمع العربي في التّاريخ، وبما هو وعاء لبشر ينتجون سياسة وثقافة وسلعا وعلاقات تبادل، وبين الدّولة بما هيئة حاكمة ومنظّمة وضابطة لعلاقات البشر، ذلك أن ما يوازي مفهوم المجتمع المدني الحديث... يمكن أن نسمّيه اصطلاحا «المجتمع الأهلي» في التّاريخ الاجتماعي-السّياسيّ العربيّ. المرجع السّابق، ص: 120.

حديثة. فطائفة الحرفة أخلت مكانها للنّقابة الحديثة، وتعدّديّة الطّرق والمذاهب أخلت مكانها للأحزاب وتعدّديّة البرامج السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة[75].

– في واقع الأمر ارتبط مفهوم المجتمع المدني– في أصوله التّاريخيّة – بتحوّل تاريخيّ في المجتمع الغربيّ وفي الفكر الغربي والنّظريّات الغربيّة، وتطوّر ليصبح مفهوما رئيسيّا في الألفيّة الثّالثة. ولعلّ ذلك ما يفسّر لنا تيّارات الرّفض أو مواءمة المفهوم في المجتمعات العربيّة باعتباره بضاعة «مستوردة» من الغرب[76]. وإنّ في كتابات غرامشي ما يدفعنا إلى تحليل العلاقة بين المجتمع المدنيّ والدّولة وما يدفعنا إلى تحليل العناصر الّتي تتشكّل منها منظّمات المجتمع المدنيّ وكذلك البحث في دور المثقّفين. إذ اكتسب هذا المصطلح تطوّرا نوعيّا تمثّل في ربطه بالهيمنة. وتجدر الإشارة إلى أنّه لا يمكن فهم المقاربة الغرامشيّة للمجتمع المدنيّ ما لم نقرنها بالدّولة وبالإيديولوجيا وبالهيمنة وبالثّقافة باعتبارها كلاّ مترابطا[77]. وهو ما يضفي صعوبة في عمليّة التّعرّيف الدّقيق والتّوافق حول المفهوم. فمفهوم المجتمع المدنيّ يتغيّر بتغيّر الموقف الإيديولوجيّ للمتكلّم، فالفهم اللّيبراليّ للمصطلح يختلف عن كلّ من الفهم الاشتراكيّ الدّيمقراطيّ والفهم الدّيمقراطيّ الرّاديكالي والفهم الإسلاميّ له.

ج – من الدّولة إلى المجتمع المدنيّ:

تبدو الدّولة، عند عبد الله العروي، ظاهرة من ظواهر الاجتماع البشريّ، تتولّد حسب قانون طبيعيّ، ويندرج حكمها تحت حكم المجتمع العامّ. فإذا بقيت خاضعة لقانون تولّدها وظهورها كانت طبيعيّة، أي معقولة، فلا ينشأ تناقض بينها وبين المجتمع أو بينها وبين الفرد. وإذا حصل تناقض لسبب غير طبيعيّ، ناتج عن خطأ إنسانيّ متعمّد، تنشأ الدّولة الاستبداديّة الظّالمة. فالدّولة إمّا طبيعيّة وهي

(75) - المرجع نفسه، ص: 130.
(76) - أماني، قنديل. الموسوعة العربيّة للمجتمع المدني، ط1، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2008، ص: 46
(77) - المرجع السّابق، ص: 49.

صالحة، وإمّا فاسدة لأنّها غير طبيعيّة[78]. وتخدم الدّولة الطبيعيّة المجتمع بقدر ما يخدم المجتمع الفرد العاقل. فتحافظ على الأمن في الدّاخل والسّلم في الخارج، وتنظّم طرق التّعاون، وتمهّد طرق السّعي، وتشجّع الكسب وطلب العلم. وكلّما تقدّمت الإنسانيّة في سبيل العلم والرّفاهيّة والسّعادة، خفّت ضرورة اللّجوء إلى الدّولة بشأن المحافظة على السّلم، وتلاشت وسائل الدّولة الزّجريّة. أمّا الدّولة الفاسدة، المناقضة للمجتمع، المبنيّة على العنف واستعباد النّاس، ليست سوى مؤامرة ضدّ الإنسانيّة، أو خرافة اختلقتها أقلّيّة شرّيرة لتثبيت حكمها والدّفاع عن امتيازاتها... ولا تخدم دولة السّطو هذا المجتمع لأنّها غير طبيعيّة وغير جديرة بالبحث الفلسفيّ[79].

غالبا ما تكون سلطة هذه الدّولة، خاصّة على شكل قوات الشّرطة والنّظام القضائيّ والسّجون والجيش، فجّة ومرئيّة وعنيفة بحيث تصعب ممارسة السّيطرة اليوميّة على الطّبقات التّابعة المرؤوسة. أمّا المدارس والمؤسّسات الثّقافيّة والمرجعيّات الدّينيّة والصّحف فهي توفّر أشكالا من السّلطة أكثر تهذيبا، وتميل مناهجها الطّوعيّة، أو على الأقلّ غير العنيفة، إلى حجب هدفها السّياسيّ. وبتحويل ممارسة السّلطة من الدّولة إلى مؤسّسات المجتمع المدنيّ هذه، جرى إبعاد السّلطة عن الجدل السّياسيّ والاحتجاج السّياسيّ[80].

2) صورة الدّولة والمجتمع المدنيّ في فكر المثقّفين العرب

يتّخذ المجتمع المدنيّ في العالم الثّالث أشكالا في مخيال نخبه تختلف عنه في أوروبا وأمريكا، تبحث في كيفيّة توسيع دائرة مشاركات المجتمع المدنيّ في تحقيق أنماط من الدّيمقراطيّة في مستوى المبادرات المحلّيّة للجمعيات والمنظّمات والاتّحادات المهنيّة، وفي مستويات مختلفة للعمل النّسويّ

(78) - عبد الله، العروي. مفهوم الدّولة، ط10، الدّار البيضاء: المركز الثّقافي المغربي، 2014، ص: 17.
(79) - نفسه، ص: 18.
(80) - تيموثي، ميتشل. الدّيمقراطيّة والدّولة في العالم العربيّ، ترجمة: بشير السّباعي، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2005، صص: 22 - 23.

باعتباره مجموعات ضغط[81]. وقد حاول «المجتمع المدنيّ» إيجاد مرجعيّة اجتماعيّة خارج الدّولة تردّ على سلطة الحزب الواحد في الدّول الشّيوعيّة، وعلى بيروقراطيّة اتّخاذ القرار في الدّول اللّيبراليّة، وعلى سيطرة اقتصاد السّوق... ولا ضير أن نطلق على الصّراع من أجل الدّيمقراطيّة في الوطن العربي تسمية المجتمع المدنيّ[82]. غير أنّ الدّولة العربيّة على هذا النّحو ليست منسلخة عن المجتمع المدنيّ فحسب، بل هي عازلة له، ومتسلّطة عليه، إذ اضطلعت بمهام جديدة في علاقتها بالغرب جعلتها تلازم بين تعلّم العرب أساليب الغرب الرّاقية، وبين مشروع تربويّ شامل تسيطر عليه. فاستساغ المثقّفون العرب هذا المشروع وأصبحت الدّولة في مخيّلتهم طوبى المجتمع وإرادته وتحقّقه التّاريخي الشّفّاف، ولا تناقض بينها وبين المجتمع... وأيقنوا أنّه بمثل هذا المشروع تتوّج المشاريع الحضاريّة للتّيّارات الفكريّة العربيّة المعاصرة... هكذا استقرّت صورة هذه الدّولة في فكر المثقّفين العرب صورة شاملة، تستطيع أن تستوعب كلّيّة النّهضة المبتغاة، وتنتفي فيها أيّ مفارقة بين الدّولة والمجتمع[83].

غير أنّ شيوع استخدام مصطلحات أخرى في العلوم السّياسيّة والاجتماعيّة مثل مصطلح «الدّولة العميقة» زعزع صورة الدّولة في أذهان مثقّفين آخرين باعتباره يوحي في كثير من الحالات إلى نشاطات سياسيّة غير شفّافة وعلاقات غير محدّدة بطريقة بيروقراطيّة معقلنة حصر «هلمي وليفتسكي» عناصرها تلك في «القواعد المشتركة اجتماعيّا غير المكتوبة عادة الّتي تمّ إنشاؤها وتبليغها وتطبيقها خارج القنوات الرّسميّة»[84]... فالأفراد يستطيعون داخل «الدّولة العميقة» إيجاد فرص للإثراء الشّخصيّ من خلال الفساد ومختلف العلاقات النّفعيّة، ويستطيع

(81) - عزمي، بشارة. المجتمع المدنيّ دراسة نقديّة، ط6، الدّوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، 2012، صص: 44 - 45.

(82) - نفسه، ص 46.

(83) - وضّاح، شرارة. حول بعض مشكلات الدّولة في الثّقافة والمجتمع العربيين، ط1، لبنان: دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتوزيع، 1980، صص: 90 - 142.

(84) - Gretchen Helmke& Steven Levitsky, «Informal Institutions and Comparative Politics : A Research Agenda,» Helen Kellogg Institute for International Studies, 2003, p. 8, accessed on 13/1/1018, at : https://goo.gl/XMPTdt

الفاعلون داخل الدّولة العميقة أن يبرّروا مجموعة من الإجراءات الّتي يتّخذونها ضدّ الحكومة والمجتمع والدّولة بأنّها ضروريّة للدّفاع عن الهويّة الوطنيّة ضدّ «الخونة»[85].

هكذا استبطن المثقّفون العرب صورتين للدّولة: صورة دولة حاملة لمشروع حضاريّ وصورة دولة مستهدفة للمجتمع وللثّقافة، ساهمتا في تحديد وعي المجتمع المدنيّ بالدّولة. فانقسمت مواقف المنظّمات والاتّحادات المهنيّة والجمعيّات الوطنيّة إلى مؤيّدة لمشروع الدّولة ورافضة له.

3) الوعي بالدّولة:

يميل الوعي العربيّ بالدّولة، في الغالب، كلّما استحضرها في صورة السّلطان القاهر الّذي يسحب النّفوذ من المناطق ويحتكره للمركز، والّذي يحيي الضّرائب ويفرض التّجنيد ويعاقب على التّمرّد... ويميل أحيانا أخرى إلى تعظيم صورة الدّولة لديه كلّما تماهت عنده مع معنى الأمّة والنّظام ووقف التّسيّب وحماية الحقوق والممتلكات[86]... ومن الممكن أن نصف هذا الانبثاق الكثيف لفكرة الدّولة وللشّعور بالحاجة إليها وإلى دورها الوطنيّ بأنّه يعبّر عن حال المصالحة النّفسيّة للمجتمع مع دولة نُظر إليها باستمرار كوحش كاسر مخيف، أو كائن سياسيّ غير مرغوب فيه، يستنفر في النّفس الشّعور بالحيطة وعدم الاطمئنان[87]. وعادة ما تكون هذه المصالحة النّفسيّة مؤقّتة وانتقاليّة بسبب النّقص الفادح في الوعي السّياسيّ عند الجمهور وفي معنى الدّولة عنده وأهمّيتها الاجتماعيّة الحاسمة بمعزل عن الأزمات الكبرى الّتي من نوع الفتن والحروب الأهليّة والغزو الخارجيّ[88]. وإذا نُظر إليها كأداة صهر وتوحيد وتأمين لا غنى للمجتمع

(85) - باتريك، أونيل. الدّولة العميقة: المفهوم النّاشئ في علم السّياسة المقارن، ترجمة الحسن مصباح، مجلّة **سياسات عربيّة**، معهد الدّوحة للدّراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة - قطر، العدد 30، كانون الثّاني/ يناير 2018، ص 86.

(86) - عبد الإله، بلقزيز. الدولة والمجتمع جدليّة الانقسام والتّوحيد في الاجتماع العربي المعاصر، ط1، بيروت: الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، 2007، ص: 99

(87) - نفسه، ص ص: 99 - 100.

(88) - نفسه، ص: 101

عنها يتراجع الشّعور العدائيّ تجاه الدّولة كرمز للقهر والطّغيان في مخيالهم الجماعيّ لصالح الشّعور الإيجابي بها كرمز للحماية والوحدة[89].

تحتفظ الذّاكرة العربيّة – الإسلاميّة، في واقع الأمر، بمزيج من الشّعور بالخوف والرّهبة من الدّولة ومن الشّعور بالحاجة إليها لحماية الجماعة. وقد تعايش الشّعوران معا في وجدان النّاس لزمن طويل، وتحايثا إلى درجة يتعذّر علينا التّمييز بينهما. لكنّهما تعاقبا أيضا وانفصلا في فترات من ذلك التّاريخ[90]. ولعلّ ما أورده الرّحّالة المكناسي في قوله: «وأمرنا الله علاه وكان في جميع أموره وتولاّه، بالتّوجّه إلى القسطنطينيّة العظمى والحضرة الفخمة، حتّى نتلاقى مع سلطانهم الأعظم الخاقان المعظم، خديم الحرمين الشّريفين... السّلطان عبد الحميد خان»[91] يبيّن لنا صورة الدّولة الّتي ارتسمت في المخيال المغربي والفكر السّياسيّ ممزوجة بالعظمة والافتخار رغم عدم بسط الدّولة العثمانيّة نفوذها على المغرب[92]. أمّا بالنّسبة إلى سيرة المجتمع العربيّ مع الدّولة فسيّئة بسبب هشاشة فكرة الدّولة في الوعي الجمعيّ واصطدامها بموروث اجتماعيّ تقليديّ (قبليّ أو عشائريّ) يأبى الانصياع لسلطة أعلى تجرّده من النّفوذ[93]. ويتّضح الانقسام أكثر في مواقف المثقّفين والسّياسيّين العرب من الدّولة الوطنيّة إذ اعتبرها الموقف القوميّ العربي ناتجة عن إرادة التّقسيم والتّجزئة الاستعماريّة وما من وظيفة سياسيّة لها إلاّ تمزيق وحدة الأمّة والوطن ونقدها الموقف الإسلاميّ فاعتبرها دولة لائكيّة تفرض على المسلمين أحكاما ليست من صميم شريعتهم. أمّا ثالث تلك المواقف النّقديّة فيتمثّل في الموقف الماركسيّ واليساريّ الّذي يتّهم الدّولة بكونها دولة طبقة هي البورجوازيّة، وأنّها دولة تابعة للمتروبول الرّأسماليّ

(89) - نفسه، ص، ن.

(90) - نفسه، ص: 102.

(91) - محمّد بن عبد الوهاب، المكناسي. احراز المعلى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتّبرّك بقبر الحبيب، تحقيق محمد بوكبوط، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003، ص ص: 48 - 49.

(92) - عمار، سراح. صورة الدّولة العثمانيّة في الرّحلات المغربيّة خلال القرن 18 «رحلة ابن عثمان المكناسي نموذجا»، مجلّة الحكمة للدّراسات التّاريخيّة، المجلّد 6، العدد 13، مارس 2018، ص ص: 127 - 128.

(93) - عبد الإله، بلقزيز، الدولة والمجتمع جدليّة الانقسام والتّوحيد في الاجتماع العربي المعاصر، ص: 105.

ومعادية لمصالح الشّعب وطبقاته[94]. ووحدهم اللّيبراليّون انفردوا بالاعتراف بالدّولة الوطنيّة وبشرعيّتها السّياسيّة إذ رأوْا فيها كيانا ضامنا للحقّ في التّملّك والحرّيّة الاقتصاديّة والتّنافس قصد الرّبح من دون التّدخّل في الإنتاج والدّورة الاقتصاديّة. وللأسباب ذاتها، ظلّت صورة اللّيبراليّين في وعي القوميّين صورة قوى قدريّة معادية للوحدة القوميّة، وفي وعي الإسلاميّين صورة قوى علمانيّة مناهضة لمرجعيّة الإسلام، وفي وعي الماركسيين صورة قوى بورجوازيّة بورجوازيّة مستغلّة معادية لحقوق الشّعب[95]. وقد كانت النّخب الحاكمة في الدّول العربيّة تدرك على نحو دقيق أنّ عليها أن تحسّن صورتها وسيرتها لدى الجمهور لتدفع عنها التّهم الثّقيلة الّتي حاصرتها منذ الميلاد: التّجزئة والكفر والعمالة للأجنبيّ. فأقامت جامعة الدّول العربيّة للإيحاء بأنّها لا تقدّس التّجزئة كما صوّرها القوميّون، ونصّت في دساتيرها على أنّ الإسلام دين الدّولة وخاطبوا الجمهور بمظاهر شعبويّة وسمحوا بتأسيس الاتّحادات والمنظّمات المهنيّة للإيحاء بالتّعاطف مع المطالب الاجتماعيّة للفئات الكادحة والمعدمة[96].

ترى هل بدّدت المراجعات صورة الدّولة الّتي ارتسمت في أذهان المثقّفين والسّياسيّين؟ وهل انتزعت الدّولة الوطنيّة الحديثة من هؤلاء جميعا الاعتراف بشرعيّتها المطعون فيها؟

– خفّف القوميّون العرب من غلواء تشنيعهم على الدّولة القطريّة وباتوا يسلّمون بها كأمر واقع باعتبار ذلك شرطا نحو الوحدة القوميّة الشّاملة أو خيارا ضروريّا نحو الحدّ من ظاهرة التّجزئة الّتي تهدّد كيانها. وتراجع الماركسيون كثيرا عن نقد محتواها البورجوازيّ ونظامها الرّأسماليّ فانصرفت عنايتهم بالتّطوّر الدّيمقراطيّ أكثر من عنايتهم بالمسألة الاجتماعيّة مقتربين شيئا فشيئا من المقالة اللّيبراليّة. أمّا الإسلاميّون، فبدأ قسم كبير منهم يعترف بدستورها وقوانينها وينخرط في أحزاب محكومة بقوانين وضعيّة، ويدخل في البرلمانات والحكومات متنازلا شيئا فشيئا

(94) - نفسه، صص: 106 - 107.
(95) - نفسه، ص : 107.
(96) - نفسه، ص: 108.

عن أطروحته الّتي تقرن السّياسة بالشّريعة[97].بيد أنّه رغم تلك المراجعات فإنّ القوميّ مازال يقرن شرعيّة الدّولة بنقض التّجزئة، ومازال الماركسيّ يعيش بقايا حلم اشتراكيّ، وإن لم يكن واثقا من صوره الذّهنيّة، ومازال الإسلاميّ مسكونا بطوبى الخلافة. وبعبارة أدقّ، مازال هؤلاء محكومين في تصوّراتهم لطبيعة الدّولة والسّلطة بمرجعيّات الوحدة والاشتراكيّة والشّريعة.

هكذا غدت الدّولة في العالم العربيّ منزوعة الغطاء الإيديولوجيّ ولا تكتسب إلاّ شرعيّة سياسيّة[98]. وما من حامل على هذا النّمط من الشّرعية إلّا حاجة المجتمع إلى دولة تحميه من التّصدّع الدّاخليّ ومن الخطر الخارجيّ. وفي هذه الحالة لم تنتزع الدّولة الوطنيّة الاعتراف من ناقديها، ولم يحقّق المجتمع استقراره الدّاخلي وأمنه الخارجي.

4) الوعي بالمجتمع المدني

غالبا ما يعرض المجتمع المدنيّ بصيغة واهية وغامضة لا تخضع للتّنظير، فمحمولات هذا المفهوم أوسع ممّا تلتقطه العين. ذلك أنّه يتطوّر بالتّرادف مع نزعات تمركز الدّولة الحديثة. وقد شدّد المنظّرون الكلاسيكيّون بوضوح على دور الدّولة تشديدا يفوق ما ذهب إليه مفكّرو القرون الوسطى، إذ اعتبر جون لوك أنّ المجتمع المدنيّ وفّر للنّاس إمكانيّة تنظيم حياة مشتركة حرّة ومزدهرة، ووعى آدام سميث بالمحدّدات الاقتصاديّة للمجتمع المدنيّ أكثر من غيره، فوثق بأنّ المجتمع المدنيّ يمكن تنظيمه حول المنفعة الفرديّة بطريقة تجلب منافع الحضارة للجميع[99]. وأنّ الإنسان لم يسع عبثا إلى الانضمام إلى مجتمع يضمّ أناسا متّحدين من أجل المحافظة على حيواتهم وحرّياتهم وطبقاتهم فقط، بل رغب فيه رغبة شديدة[100]، فأفراد المجتمع المدنيّ يتصرّفون طبقا لمصالحهم

(97) - نفسه، صص: 110 - 111.
(98) - نفسه، ص:111.
(99) - جون إهرنبرغ. المجتمع المدنيّ التّاريخ النّقديّ للفكرة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، ط1، بيروت: المنظّمة العربيّة للتّرجمة مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2008، ص: 170
(100) - نفسه، ص: 174.

الذّاتيّة الّتي يرونها، ويعنون بتوفير حاجاتهم الفرديّة وينساقون على الدّوام وراء معاملة الآخرين باعتبارهم وسائل لتحقيق غاياتهم... وإذ توحّدُ العائلةُ أعضاءها على أساس يشتركون فيه، فإنّ المجتمع المدنيّ يقسّم أعضاءه على أساس اختلافاتهم، فيضطرّ الأفراد إلى التّصرّف بأنانيّة وذرائعيّة أحدهم مع الآخر، ولكنّهم لا يستطيعون توفير حاجاتهم، ولا تحسين مصالحهم المتبادلة، ولا بناء مجموعة من العلاقات الاجتماعيّة المتينة[101].

كيف تتحوّل الأنانيّة إلى تنوير، ويتحوّل الأنانيّون إلى أعضاء محترمين وواعين لذاتهم في المجتمع المدنيّ؟

مع أنّ العائلة في الأصل هي الوحدة الذّاتيّة الّتي تعيد الفرد في جانبه الجزئيّ بأن تقدّم إليه الوسائل أو المهارة الضّروريّة الّتي تؤهّله لكسب رزقه من موارد المجتمع، فإنّ هيجل يرى أنّ المجتمع المدنيّ ينتزع الفرد من صلاته العائليّة، ويبعد أعضاء العائلة أحدهم عن الآخر، ويعترف بهم بصفتهم أشخاصا قائمين في ذواتهم، ويستبدل تربة الأبوّة وموارد الطّبيعة الخارجيّة اللاّ عضويّة الّتي استمدّ منها الفرد حياته بتربة خاصّة... هكذا يصير الفرد ابنا للمجتمع المدنيّ الّذي يحمّله أعباء كثيرة ويقدّم إليه حقوقا[102]، فالمجتمع المدنيّ الّذي يتحوّل بفعل ديناميّة إلى نفي الحرّيّة، ينتج جمهرة بالغة الخطورة من الفقراء المسيّسين والمغتربين تسخط ضدّ الأغنياء وضدّ المجتمع وضدّ الحكومة. وقد كانت الأنظمة الاجتماعيّة السّابقة قادرة على الدّفاع عن نفسها من خلال حجج تستمدّها من اللّه أو الطّبيعة، ولكنّ الثّورة الفرنسيّة قطعت عليها هذا الطّريق. وأصبح من الضّروريّ العثور على مقولة أخلاقيّة من خارج منطق المجتمع المدنيّ الّذي تحرّكه السّوق. فتحوّلت الدّولة مع هيجل إلى الميدان الأخلاقي المجسّد للكلّيّة والتّكامل الّذي يختتم الضّرورة المتحكّمة بالمجتمع المدنيّ وحقّ الخصوصيّة السّائد فيه[103].

(101) - نفسه، ص: 243.

(102) - Hegel, Grorge William Friedrich. The philosophy of Right, Translated by T. M. Knos. Oxford: Oxford University press, 1967. P.148.

(103) - جون، إهرنبرغ. المجتمع المدنيّ التّاريخ النّقديّ للفكرة، مرجع سابق، ص: 249.

5) الهشاشة والقوّة: أيّة أرضيّة للمجتمع المدنيّ؟

عادة ما يغطي مفهوم الدّولة الفاشلة الدّولة الّتي لا تقوم بالوظائف السّيادية الأساسيّة في مسائل النّظام العامّ والشّرطة والعدالة ولا تنجح في معارضة الاضطرابات الدّاخليّة أو الأزمات السّياسيّة أو العرقيّة الّتي تسبّب الهجرة الجماعيّة لبعض السكان، أو حتى اندلاع الحروب الأهلية... وتوصف الدّولة بالفشل والهشاشة عندما لا تكون هناك سلطة مركزية قادرة حصريًا على ضمان ممارسة العنف المشروع داخل حدود ذلك البلد وعندما لا تضمن احترام حقوق الإنسان ولا تلبي الاحتياجات الأساسية للسكان مثل حالة رواندا في عام 1994، عندما وقعت في قبضة الإبادة العرقيّة، والوضع الّذي أعقب تفكيك يوغوسلافيا، والوضع السّياسي والعسكريّ لكمبوديا أو لبنان الّذي لا يزال عالقا في أذهان الجميع. ولا يفوتنا في هذا السّياق أن نذكّر بحالة السّودان الّذي قوّضتها جرائم الميليشيات الخاصّة، أو حالة الصّومال الّذي تعرّض لكارثة إنسانيّة ولأعمال إجراميّة نفّذتها عصابات منظّمة. أمّا بالنّسبة إلى العراق وأفغانستان وليبيا واليمن وسوريا فإنّها دول تضرّرت كثيرا فمرّت بفعل الحروب من حالة الاستقرار والانكفاء على الذّات إلى حالة الضّعف والوهن. وبما أنّ هذه الدّول غير منسلخة عن المجتمع فإنّها خلقت خواء اجتماعيّا، فتلازمت الصّراعات الدّاخليّة مع الصّراعات الخارجيّة. ويرجع كثيرون هشاشة المجتمع في البلدان العربية المعاصرة إلى طبيعة التّكوين الاجتماعيّ الفسيفسائيّ فيه، وإلى البنى والعلاقات الاجتماعيّة التّقليديّة الحاكمة للاجتماع الأهليّ والقائمة على علاقة العصبيّة، مع ما تفرضه تلك التّكوينات والبنى والعلاقات من قيد أو كبح لسيرورات التّحوّل الاجتماعيّ والتّبنيُن الفئويّ والطّبقيّ الحديث[104]. ولا يعتبر مجتمع، متعدّد التّكوين، فسيفسائيّ الهيئة، مجتمعا عصبويّا، لمجرّد أنّه يزدحم بجماعات اجتماعيّة فرعيّة تميّز نفسها عن غيرها بالدّين أو المذهب أو الإثنيّة أو روابط القرابة، بل عندما تتحوّل تلك الجماعات إلى كيانات ذات طبيعة مؤسّسيّة: إلى

(104) - عبد الإله، بلقزيز، الدولة والمجتمع جدليّة الانقسام والتّوحيد في الاجتماع العربي المعاصر، ص: 60.

كيانات طائفيّة مغلقة تمثّل بالنّسبة إليها وحدات عضويّة نهائيّة...[105] ونصبح أمام حالة من حالات اندفاعة العصبيّات الأهليّة نحو التّمأسس في أطر مغلقة خصوصيّة وغير عامّة، أي أمام شكل من أشكال إنشاء مجتمع فرعيّ داخل المجتمع ودولة صغرى داخل الدّولة، وهي حالة يمتنع معها قيام مجتمع وطنيّ ودولة وطنيّة جامعة[106].

تنبّهنا التّجارب المرّة والمتعاقبة للفتن والحروب الأهليّة الدّاخليّة في المجتمعات العربيّة المعاصرة إلى حقيقة مزدوجة: هشاشة المجتمع وهشاشة الدّولة. فالهشاشتان تتغذّيان من بعضهما البعض وتتضافران في إنتاج المعضلة ذاتها الّتي تتمثّل في تفتيت الكيان الاجتماعيّ والسّياسيّ.وما من شكّ في أنّ الأزمة السّياسيّة تصدّع البنيان الاجتماعيّ، وأنّ الانقسام الاجتماعيّ يفقد الدّولة سلطانها السّياسيّ وقد يجبرها على التّفويت فيه لصالح سلطات أهليّة تنتزعها العصبيّات مثلما حدث في لبنان بين 1975 و1989 وحدث في العراق سنة 2003[107]، وأنّما يحدث الآن في ليبيا واليمن وسوريا يمكن أن يحدث في أيّ مكان آخر من العالم العربيّ إذا تشابهت المعطيات. وقد أضحى في حكم المتأكّد أنّ الدّولة لا تكون في صحّة جيّدة إذا اعتلّت صحّة المجتمع، وأنّ المجتمع لن يكون معافىً إن أصاب الدّولة مرضٌ. فالعلاقة بينهما علاقة تلازم والمصير واحد في السرّاء والضرّاء، ومن يبغي منهما أن ينال من الآخر ينال من نفسه[108].

تجدر الإشارة إلى أنّ الانخراط في نظام سياسيّ حديث يخفّف من حدّة الأزمات السّياسيّة ويخرج المجتمع من حال الانقسام الأهليّ العصبويّ إلى حال الاندماج المواطنيّ. غير أنّ ما حدث في العالم العربيّ أنذر بهشاشة الدّولة والمجتمع. لا سيّما أنّ الفئات السّياسيّة الممثّلة له توّاقة إلى احتكار السّلطة رغم اختلاف مرجعيّاتها الفكريّة. فحال وصول أيّ منها بوسائل شرعيّة، يصرّ على البقاء في السّلطة بطرق غير شرعيّة تتّخذ في أغلب الأحيان أشكالا دستوريّة

(105) - نفسه، ص: 61.
(106) - نفسه، ص.ن
(107) - نفسه، ص: 57.
(108) - نفسه، صص: 58 - 59.

مثل تنقيح الدّستور والاستفتاء... وقد يزداد شقاء المجتمع حين تتحوّل الأنظمة السّياسيّة إلى أنظمة تسلّطيّة ذات طابع عشائريّ وعائليّ تتوزّع فيها السّلطة على الأقربين والأهل دون غيرهم[109].

اقترن معنى الدّولة في وعي الجمهور العربيّ بالقوّة والشّدّة والقهر... وهو اقتران يحتاج إلى بحث عميق يتوسّل بأدوات التّاريخ وعلم الاجتماع والإنتروبولوجيا السّياسيّة والتّحليل النّفسيّ للسّلوك الجماعيّ لم ينجز بعدُ في الفكر السّياسيّ العربيّ. فحين تلجأ دولة إلى ممارسة هذا النّحو من السّلطة القهريّة، مثلما هو حاصل في أكثر البلاد العربيّة، فهي بذلك تُفصح عن أزمة الشّرعيّة فيها وتكشف عن مقدار ما تعانيه من غياب المشروعيّة السّياسيّة . ولا يعتبر لجوء السّلطة إلى ممارسة القهر السّياسيّ تعبيرا عن القوّة لديها كما يُظنّ، وإنّما هو بالعكس تعبير عن مقدار ما تعانيه من عجز في القوّة. فالقوّة الحقيقيّة للدّولة هي القوّة غير المادّيّة، هي قوّتها الأخلاقيّة وقوّتها الإنجازيّة، وهي الّتي تُحقّق بها الدّولة الاستقرار السّياسيّ والأمن الاجتماعيّ وتضمَنُهُما ... وما من شكّ في أنّ احتكار العنف شيء وممارسة القهر شيء آخر مختلف، فحين تحتكر الدّولة العنف تتصرّف كدولة مجرّدة تمثّل المجموع الاجتماعيّ والحقّ العامّ. أمّا حين تمارس القهر، فلا تتحوّل فقط إلى دولة تسلّطيّة، بل إلى سلطة في يد فريق من المجتمع ضدّ آخر فتتخلّى عن كونها دولة.

وقد عكس مؤتمر «دول متراجعة/ مجتمعات مدنيّة متوسّعة» المنعقد بفرنسا سنة 1988 النّظرة السّائدة عن العلاقة بين الدّولة والمجتمع. إذ يجري النّظر إلى كلّ منهما على أنّه يحتلّ مجالا منفصلا ويتوسّع وينكمش على حساب الآخر أو لحسابه. ويُعتقد أنّ تنمية مؤسّسات المجتمع المدنيّ (الاتّحادات المهنيّة، النّقابات، الجمعيّات الطّوعيّة، الهيئات التّعليميّة والثّقافيّة، الجمعيّات الأخويّة الدّينيّة والصّحف ووسائل الإعلام غير الحكوميّة) ستمكّن من اختزال سلطة الدّولة وإخضاعها تدريجيّا للرّقابة الدّيمقراطيّة[110].

(109) - نفسه، ص: 63.

(110) - تيموثي، ميتشل. الدّيمقراطيّة والدّولة في العالم العربيّ، ص: 28

6) في أسباب انفصام العلاقة بين الدّولة والمجتمع

تتطابق العلاقة الجدليّة بين الدّولة والمجتمع المدنيّ حينا، وتتمايز حينا آخر. فالمجتمع المدنيّ ليس الدّولة ولكنّه لا يمكن أن يتمظهر إلاّ من خلالها. إنّهما يشكّلان في المحصّلة وحدة معقّدة من الصّراع والتّكامل. وقد طرح المفهوم في المحافل الثّقافيّة العربيّة والمنتديات مع بداية عقد الثّمانينات من القرن العشرين، ثمّ تكثّف الجدل حول المفهوم في الكتابات العربيّة بسبب ارتباطه بسياق عربيّ وتطوّر تاريخيّ على مدى قرنين من الزّمن[111]. إذ انتشرت مؤلّفات «أنطونيو غرامشي» في المجتمع العربيّ وبدأ مفهوم المجتمع المدنيّ بالتّشكّل واختراق الثّقافة العربيّة وساهم في إكسابها طابعا توعويّا اجتماعيّا يقوم على الأعمال التّضامنيّة والخيريّة[112]. وقد تدرّجت المناقشات من صدّ ورفض إلى قبول وبحث عن أصول له في الفكر السّياسيّ العربيّ، وفي الثّقافة الإسلاميّة على وجه الخصوص. فاعتُبر آليّة رئيسيّة لتحقيق الدّيمقراطيّة والإصلاح السّياسيّ تارة، ومفهوما غربيّا منقطع الصّلة بالثّقافة العربيّة تارة أخرى[113].

تجدر الإشارة إلى أنّ الدّولة العربيّة أخفقت في انتزاع شرعيّة سياسيّة واسعة، وازدادت حدّة أزماتها حين عجزت عن إدراك الانفصال الكامل بينها وبين المجتمع، وعن إدراك شحّ تمثيلها للتّكوينات الاجتماعيّة. فعمدت إلى استنبات قشرة اجتماعيّة بديلة إزاء تمنّع المجتمع المدنيّ أو سلبيّته في تأييدها توكل إليها مهمّة تمثيل المجتمع الغائب. فأنشأت نقابات أو روابط «لتمثيل العمّال» والفلاحيين والمهنيين لتسند شرعيّتها، وتختار قيادات على رأسها لا يختلفون كثيرا عن موظّفي الدّولة، وخلقت صحافة رسميّة ذليلة، وأضافت إلى أبواق الحكم بوقا مكتوبا... وهكذا يكون «المجتمع المدنيّ» الذي تعلن الدّولة وحدتها معه قشرة كاذبة، لا يمثّل سوى ظلّ الدّولة على سطح المجتمع. فهو

(111) - بيار بورديو، عن الدّيمقراطيّة دروس في الكوليج فرانس 192-1989، ترجمة نصير مروة، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، أيلول/سبتمبر 2016، ص: 52.

(112) - هناء، بولعراس. لمحة عن المجتمع المدنيّ وآلياته على الرّابط التّالي:
https://jamaity.org/2020/02/

(113) - بيار، بورديو. المرجع السّابق، ص: 54.

مجتمع صنعته الدّولة على صورتها[114]. وليس مصادفة أن يكون بين الدّولة والمجتمع المدنيّ صلة. إذ يجري في الصّحافة والإعلام، بين الحين والآخر، استحضار المجتمع المدنيّ كما يقال، أي شخصيّات غير سياسيّة تحظى بقبول واسع لدى جمهور النّاس، تظلّ تملك ضربا من اللّسان وطريقة ما في الكلام[115].

أكّد عزمي بشارة أنّ النّفور من الدّولة هو في نهاية الأمر نفور من السّياسة، وأنّ النّفور من السّياسة هو ألدّ أعداء الدّيمقراطيّة، وبخاصّة عنصر المشاركة في الحياة العامّة، وهو العنصر اللاّزم الأكثر أهمّية في مجتمع مدنيّ. وأوضح أنّ هذا النّوع من النّفور تشجّعه أغلبيّة الدّيكتاتوريّات والتّوجّهات النّخبويّة في حالة الأنظمة الدّيمقراطيّة لتسيطر على نفوس النّاس وأوقات فراغهم وخصوصياتهم وميولهم، باتّجاه توحيد قيمهم وغير ذلك[116]. وقد شكّلت هذه السّيطرة حالة انفصام في العلاقة بين الدّولة والمجتمع اختلف في طريقة جبرها كثيرون. فمن استنتج أنّ هذه الحالة حدثت بسبب الانفصال بين السّياسة والشّريعة تطلّع إلى المواءمة بينهما على النّحو الّذي تستعاد به وحدة الأمّة في إطار دولتها الجامعة. ومن استنتج أنّ الانفصام حصل بسبب انحياز الدّولة إلى عصبيّة أو طائفة على أخرى تشوّف إلى تركيز دولة تكون محايدة تجاه قوى المجتمع كافّة. ومن استخلص أنّ الانفصام نجم عن استبداد الدّولة والحكّام رأى أنّ خلاص الأمم واستعادة الدّول وحدتها لا يتمّان إلاّ من خلال ترسيخ القيم اللّيبراليّة كأسس ومبادئ. ومن تأكّد لديه أنّ الانفصام حدث نتيجة ضعف الدّولة وقلّة حيلتها أمام سلطات أهليّة متمكّنة واتّحادات مهنيّة ومنظّمات وجمعيات، جدّد ثقته في قوّة الدّولة واعتبرها ضرورة ولو بطشت لأنّ بطشها أرحم من بطش الأهالي المسلّحين[117].

هكذا نستنتج أنّ المجتمع المدني لم ينشأ من ضعف الدّولة، ولم يكن نتاج هدم الدّولة أو تراجعها أو زعزعتها، وإنّما كان نتاج تحديد العلاقة بينها كمجال

(114) - مجموعة من المؤلّفين. المجتمع والدّولة في الوطن العربي، تحرير سعد الدّين إبراهيم، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1988، ص: 97

(115) - بيار، بورديو. عن الدّولة، ص: 60.

(116) - عزمي بشارة.المجتمع المدنيّ دراسة نقديّة، مرجع سابق، ص: 75

(117) - عبد الإله، بلقزيز. الدولة والمجتمع، ص: 115.

السّلطة واحتكار القوّة وبين المجتمع المفترض فيه أن يكون مصدر شرعيّتها. والملاحظ أنّه لم يكن، عند اللّيبراليّين الكلاسيكيّين خصما لدودا للدّول المتقدّمة في مجالات البيئة والصّحّة والثّقافة والتّعليم وصناعات أوقات الفراغ الآخذة في الازدياد، وإنّما قوى السّوق هي الّتي كانت خصما شرسا لها[118]. ّ فالمجتمع المنفصل عن الدّولة عادة ما يقود إلى السّوق الرأسماليّة. وقد تحوّل هذا الموقف اللّيبراليّ إلى فكر سائد يمنع أيّ وجود أو حيّز عامّ قائم على المشاركة. غير إنّ مجرّد فصل الدّولة عن الاقتصاد، بهذا المعنى يدمّر قضيّة المساواة الاجتماعيّة ويخلق مجتمعا مدنيّا نخبويّا[119].

7) الدّولة والمجتمع المدنيّ: حدود التّكامل

نعتقد أنّ عمليّة الاندماج بين الدّولة والمجتمع تعثّرت بسبب انكفاء من أصابهم الحيف، أي من لم يجدوا مصلحة تبرّر اندماجهم في هذا الكيان. وليس من باب المصادفة أنّ أدوات انفصال كثيرة نشأت في هذه المناطق والجماعات الّتي تعرّضت للنّبذ والإقصاء الاجتماعيّ وعانت من عسر في الاندماج مثل المجتمعات العربيّة. فالمرء لا يتخلّى بيسر عن روابطه الطبيعيّة – الأسريّة أو القبليّة إلاّ متى تولّدت مصالح جديدة تربطه بأنساق اجتماعيّة أعلى من البنى الطّبيعيّة وأبعد مدى من المصالح الّتي تنشأ في كنف تلك الرّوابط والبنى[120]. والدّولة تعيد انتشار الأفراد والجماعات ضمن روابط متمايزة عن روابط النّسب والدّم والقرابة.

تجدر الإشارة إلى أنّ بعض الدّول العربيّة نجحت في تحقيق هذا الصّهر أو الدّمج من خلال إنتاج مصالح عامّة تبرّر لأولئك الأفراد والجماعات انتماءهم المشترك لمؤسّسات وهياكل المجتمع المدنيّ. فنشأة منظّمة الاتّحاد العام التّونسي للشّغل بتونس كانت بمقتضى مصلحة ماديّة. ذلك أنّ المجتمع المدنيّ يخلق بين النّاس روابط تدمجهم في وحدات اجتماعيّة وتكوّن لديهم أناهم

(118) - عزمي بشارة، المرجع نفسه، ص: 75.
(119) - نفسه، ص: 77.
(120) - عبد الإله، بلقزيز.الدولة والمجتمع، ص: 123.

الجمعيّة، وأنّ الدّولة تسمح لهم بالمزيد من الاندماج الاجتماعي المحميّ بالإرادة العامّة الجامعة لا بعنف الدّولة وأجهزتها القمعيّة[121]

أمّا بالنّسبة إلى المجتمع المدنيّ الّذي ترافقه عناصر محافظة وتقليديّة فإنّه يحتلّ في مفهومه حيّزا عامّا للثّقافة يَعتبرُ الخصوصيّة القوميّة والثّقافيّة إطارا موحّدا في مواجهة الدّولة. وتتكامل في هذا الحيّز العناصر الحداثيّة مع العناصر غير الحداثيّة. ففي وضعيّة الأردن مثلا، يعترف بالقضاء العشائريّ إلى جانب القضاء المدنيّ، ويتمّ استقبال رؤساء العشائر من قبل رموز النّظام للتّشاور معهم،وتخصّص الصّحافة الأردنيّة حيّزا هامّا من الإعلانات لتعبّر فيها العشائر عن استحسان أمور سياسيّة. أيّ أنّ هناك طمسا للحدود بين المجتمع المدني وبين عدّة مجالات مجتمعيّة أخرى[122]. ولئن أكّد عبد الإله بلقزيز أنّ الوجه السّياسيّ للاندماج الاجتماعي لن يتحقّق إلاّ بالدّيمقراطيّة والتّنمية اللّتيْن توفّران سبيلا آمنا نحو نمو الوعي الجمعيّ ولن يتمّ إلاّ بفائدة المواطنة في حفظ الحقوق العامّة وصونها[123]، فإنّنا نرى أنّ التّحوّلات السّياسيّة والاجتماعيّة الّتي طرأت بالمنطقة العربيّة خلال العقد المنصرم لم تحقّق إلاّ تنمية هشّة ووعيا سياسيّا ومواطنيّا ضعيفا يعسّر عمليّة التّوحيد والاندماج بين الدّولة والمجتمع المدنيّ.

ما من شكّ في أنّ الدّول أنشئت بطبيعة تأسيسها لتستمرّ بقدر ما يستمرّ الجنس البشريّ أو قوانين الطّبيعة أو العدالة عينها الّتي تبثّ فيها الحياة[124]. ولئن أكسب التّطوّر الدّلاليّ للمجتمع المدنيّ هذا المفهوم قدرة أكثر فاعليّة على التّشكّل والتّبدّل والتّعبير عن حاجات جديدة للمجتمع، فإنّ الاستعمالات الأولى لمفهوم المجتمع المدني في الفكر الغربيّ بقيت على لبس مفهومي في مستوى علاقة المجتمع المدنيّ بالدّولة، وإنّ الغموض في مستوى تحديد الفواصل بين الدّولة والمجتمع المدنيّ مازال قائم الذّات، خاصّة كلّما تعلّق الأمر

(121) - نفسه، ص: 125.

(122) - عزمي بشارة، المجتمع المدني دراسة نقديّة، صص: 71-70.

(123) - عبد الإله، بلقزيز، المرجع السّابق، ص: 127.

(124) - هوبز، توماس، هوبز. اللفياثان الأصول الطّبيعيّة والسّياسيّة لسلطة الدّولة، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، ط1، أبوظبي - بيروت: هيئة أبوظبي للثّقافة والتراث «كلمة» ودار الفارابي، 2011، ص: 318

بمجتمعاتنا العربيّة[125]. ممّا يعني أنّ التّداول العربي لمفهوم المجتمع المدنيّ متباين الاستعمال، فهو يفرض في الآن نفسه مجموعة من الحواجز «تحدّ من سلطة الدّولة» ويشرّع حزمة من الإجراءات تسند شرعيّة الدّولة إذا مسّها ضرّ ما. إضافة إلى ذلك فإنّ الثّقافة السّياسيّة السّائدة تكرّس التّقليد والاستتباع للسّلطة، وإنّ التّدخّل السّرطاني المتضخّم والمفرط للدّولة في الحياة الاجتماعيّة يعوق أي إمكانيّة فعليّة لاستقلال الاجتماعيّ عن السّياسيّ[126]. ويتّضح جليّا أنّه رغم سياسة الاحتواء والدّمج الّتي تسلكها الدّول العربيّة تجاه المجتمع المدنيّ، فإنّ تشتّتا آخر يطفو على سطح العلاقة بين الطّرفين. فالدّولة مذبذبة إزاء مجتمعين مدنيين: مجتمع مدني رسمي منتشر في العواصم والمدن يعتمد أساسا على ما هو مكتوب كالأحزاب والنّقابات والجمعيّات ومجتمع مدنيّ غير رسميّ منتشر في محيط المدن وأحياء الصّفيح والأرياف ويعاني ظروفا معيشيّة صعبة ويعتمد الصّمت في مواجهة الدّولة[127].

الخاتمة

كانت إشكاليّة الصّراع والتّكامل بين الدّولة والمجتمع المدني من الإشكاليات الّتي دفعتنا في هذه الورقة إلى تبنّي مقاربة اجتماعيّة سياسيّة تجلّي الرّوابط الخفيّة للرّاهن العربيّ المأزوم. وقد أدّى هذا الاختيار إلى متابعة التّطوّر الدّلالي للمفاهيم والمصطلحات والبحث عن الأسباب الكامنة وراء اضطراب العلاقة بين الدّولة والمجتمع المدنيّ. وتوقّفت الورقة، بناء على هذا التّمشّي، عند كثير من الملاحظات والاستنتاجات الّتي تخصّ التحدّيات المتاحة أمام الدّولة والمجتمع لتجاوز حالة الضّعف والهشاشة.

حاولنا في مستوى أوّل أن ننجز قراءة اجتماعيّة سياسيّة للكشف عن أسباب جنوح الدّول العربيّة إلى استنبات فكرة المجتمع المدنيّ. فكانت مقاربة غرامشي

(125) - أماني، قنديل. الموسوعة العربيّة المجتمع المدني، ص: 51.
(126) - عبد الإله، بلقزيز.ضمن كتاب المجتمع المدني العربي ودوره في تحقيق الدّيمقراطيّة، مرجع سابق، صص: 261 - 262.
(127) - عبد الله ساعف، المجتمع المدني في الفكر الحقوقي العربيّ، المرجع السّابق، ص: 244.

في تشكّل المجتمع المدنيّ هي الاختيار المعرفيّ والمنهجيّ الّذي ارتضيناه أفقا لتحريك مجموع الأفكار. وإنّه لا يمكن فهم هذه المقاربة ما لم نقرنها بالدّولة وبالإيديولوجيا وبالهيمنة وبالثّقافة باعتبارها كلاّ مترابطا. إذ استقرّت صورة الدّولة في المخيال العربيّ صورة سلبيّة قائمة على القهر والتّسلّط. وتحتفظ الذّاكرة العربيّة بمزيج من الشّعور بالخوف والرّهبة من الدّولة ومن الشّعور بالحاجة إليها لحماية الجماعة. وقد رأينا أنّ الشّعورين تعاقبا وانفصلا في فترات من التّاريخ.

وحاولنا في مستوى ثان أن نجلّي مواقف المثقّفين والسّياسيين من الدّولة الوطنيّة. فعرضنا صورة الدّولة في وعي القوميّين والإسلاميّين والماركسيّين وأوضحنا كيف أصبحت هذه الدّولة منزوعة الغطاء الإيديولوجيّ ومعرّضة للتّصدّع لفقدانها الشّرعيّة. ممّا أجبرها على التّفويت في سلطانها السّياسيّ لصالح سلطات أهليّة تنتزعها العصبيّات معروفة باسم المجتمع المدنيّ الّذي ينتج جمهرة بالغة الخطورة من الفقراء المسيّسين والمغتربين تسخط ضدّ الأغنياء وضدّ المجتمع وضدّ الحكومة.

أدركنا في خاتمة البحث أنّ النّفور من الدّولة هو نفور من السّياسة وأنّ النّفور من السّياسة هو ألدّ أعداء الدّيمقراطيّة، وبخاصّة عنصر المشاركة في الحياة العامّة، وهو العنصر اللاّزم الأكثر أهمّية في مجتمع مدنيّ. وتوصّلنا إلى نتيجة مفادها أنّ التّحوّلات السّياسيّة والاجتماعيّة الّتي طرأت بالمنطقة العربيّة خلال العقد المنصرم لم تحقّق إلاّ تنمية هشّة ووعيا سياسيّا ومواطنيّا ضعيفا عسّر عمليّة التّوحيد والاندماج بين الدّولة والمجتمع المدنيّ. وأنّ المجتمع المدنيّ لم ينشأ من ضعف الدّولة وهشاشتها، ولم يكن نتاج هدمها أو تراجعها أو زعزعتها، وإنّما كان نتاج علاقة جدليّة بينها وبين المجتمع المفترض فيه أن يكون مصدر شرعيّتها.

قائمة المراجع

العربيّة:

- أبيليس، مارك. أنتروبولوجا العولمة (ترجمة عبد الحميد بورايو)، ط1، دمشق: دار نينوى للنّشر والتّوزيع، 2017.

- أونيل، باتريك. الدّولة العميقة: المفهوم النّاشئ في علم السّياسة المقارن، ترجمة الحسن مصباح، مجلّة سياسات عربيّة، معهد الدّوحة للدّراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة – قطر، العدد 30، كانون الثّاني/ يناير 2018.

- إهرنبرغ، جون. المجتمع المدنيّ التّاريخ النّقديّ للفكرة، ترجمة علي حاكم صالح، حسن ناظم، ط1، بيروت: المنظّمة العربيّة للتّرجمة مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2008.

- بشارة، عزمي. المجتمع المدنيّ دراسة نقديّة، ط6، الدّوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، 2012

- بورديو، بيار. عن الدّولة دروس في الكوليج فرانس 192-1989، ترجمة نصير مروة، ط 1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، أيلول/ سبتمبر، 2016.

- بلقزيز، عبد الإله. الدولة والمجتمع جدليّة الانقسام والتّوحيد في الاجتماع العربي المعاصر ، ط1، بيروت: ، الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، 2007.

- سراح، عمار. صورة الدّولة العثمانيّة في الرّحلات المغربيّة خلال القرن 18 «رحلة ابن عثمان المكناسي نموذجا»، مجلّة الحكمة للدّراسات التّاريخيّة، المجلّد 6، العدد 13، مارس 2018.

- شرارة، وضّاح. حول بعض مشكلات الدّولة في الثّقافة والمجتمع العربيين، ط1، لبنان: دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتوزيع، 1980.

- العروي، عبد الله. مفهوم الدّولة، ط10، الدّار البيضاء: المركز الثّقافي المغربي، 2014

- قنديل، أماني. الموسوعة العربيّة للمجتمع المدني، ط1، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2008.

- لالاند أندريه. موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب أحمد خليل، ط2، بيروت – باريس: منشورات عويدات، المجلّد الأوّل، 2001.

- مجموعة من المؤلفين. المجتمع المدني العربي ودوره في تحقيق الدّيمقراطيّة، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2001.

- مجموعة من المؤلّفين. المجتمع والدّولة في الوطن العربي، تحرير سعد الدّين إبراهيم، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1988.

- المكناسي، محمّد بن عبد الوهاب. احراز المعلى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والخليل والتّبرّك بقبر الحبيب، تحقيق محمد بوكبوط، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003.

- مولى، على الصّالح. الدّولة الوطنيّة والشّرعيّة بحث في عوائق الاستخلاف وآفاق الاختراق، ط1، صفاقس: مطبعة التّسفير الفنّي، 2007.

- ميتشل، تيموثي. الدّيمقراطيّة والدّولة في العالم العربيّ، ترجمة: بشير السّباعي، مصر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2005.

- هوبز، توماس. اللفياثان الأصول الطّبيعيّة والسّياسيّة لسلطة الدّولة، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، ط1، أبوظبي – بيروت: هيئة أبوظبي للثّقافة والتراث «كلمة» ودار الفارابي، 2011.

الأجنبيّة:

- Gretchen Helmke & Steven Levitsky, «Informal Institutionsand Comparative Politics : A Research Agenda», Helen Kellogg Insti-

tute for International Studies, 2003, p. 8, accessed on 13/1/1018, at : https://goo.gl/XMPTdt.

- Hegel, Grorge William Friedrich. The philosophyofRight, Translatedby T. M. Knos. Oxford: Oxford University press, 1967.

الإنترنيت:

– دى فابر، جاك دونييه. الدّولة، ترجمة أحمد حسيب عبّاس، ص ص: 2 – 3. على الرّابط التّالي:

https://docs.google.com/viewerng/viewer?hl=ar&t=50&url=https://www.alarabimag.com/books/21008.pdf